مقدمة

في الخامس من شهر أكتوبر عامَ 2011 توفي ستيف جوبز، مؤسس شركة «أبل» (Apple) ورئيسها التنفيذي السابق. وما هي إلا سويعاتٌ حتى ازدحمت وسائلُ الإعلام العالميةُ بعباراتِ التقدير والثناء، وانضافت إلى هذه التأبينات والمدائح التي بثتها الصحافة الدوَلية أطنانٌ من التصريحات والشهادات على مواقع التواصل الاجتماعي. وقد سجلت منصة التدوينات القصيرة «تويتر» مستوًى قياسيًّا من التفاعل سرعان ما بلغ الحدّ الأقصى من الضغط. وأعرب كثير من الفنانين وروّاد الأعمال ورجال السياسة المبرَّزين عن إعجابهم بالفقيد. وصارت الكلمات نفسُها تُلاك على ألسنة الجميع: لقد عُرف ستيف جوبز بأنّه عبقري مبدِعٌ ذو رؤية بعيدة، «غيّر العالَم» بمنتَجاته المبتَكرة، وافتكّ لنفسه مكانًا في «بَنثيون»[1] العظماء من روّاد الأعمال الأمريكيين، بجوار توماس إديسون وهنري فورد ووالت ديزني، بفضل ما أطلقه من ثورة في الإعلام الآلي في سبعينيات القرن العشرين من مرآب منزله، ثمّ بما حققه خطوةً بعد خطوةٍ من اختراعٍ لأجهزة «الأيبود» و«الأيفون» و«الأيباد» في العقد الأوّل من القرن الحالي.

وفي الأيّام التي تلت وفاته تجمّعت حشودٌ أمام متاجر «أبل» في أماكنَ كثيرة في العالَم، حيث جاء محبّو هذه العلامة التجارية ليضعوا صورًا ورسوماتٍ وورودًا ويدَعوا رسائلَ، تجمّعوا يحملون بأيديهم أجهزة «الأيباد» وأعيُن الصحفيين ترقبهم. غير أنّ مشاهد الحِداد العالمي هذه لم تكن بدعًا من المشاهد يومئذ، فقد رأيناها قبل

(1) «البَنْثِيون» (panthéon): معبدٌ كانت تتّخذه بعض المجتمعات القديمة كالإغريق والرومان مقبرةً رمزية لآلهتِها [المترجم].

ذلك بأعوامٍ في وفاة الأميرة ديانا عام 1997، ووفاة مايكل جاكسن عام 2009. فأعضاء مجتمعات وسائط التواصل تنمو عندهم «علاقات شبه اجتماعية»: إنّهم يتعلّقون بشخصيات عامّة ويتمثّلونها إلى حدّ البكاء والحداد عليها عند موتها[1]. ولكنّ الحداد هذه المرّة لم يكن على مغنٍّ أو ممثّل أو قائد سياسي، بل على رئيس شركة.

وهكذا بدا أنّ رائد الأعمال قد استولى له على مكانٍ في المخيال الإعلامي المعاصر؛ فهو الذي يرشِد البشريّة في طُرُق التقدّم التكنولوجي بما لشخصيته من قوّة، وبما يجسّده من ابتكار وعبقرية صناعية. ومسرحُ أولمبِه (Olympe) هو وادي السيليكون، حيث تنشط قوى الإعلام الآلي والرقميات كلُّها. وقد أصابها اليُتم بغياب ستيف جوبز؛ فمن ذا الذي سيجسّد العبقرية الصناعية الكاليفورنية من الآن فصاعدًا؟ لقد ظلّت الصحافة الأمريكية والعالَمية طيلة العقد الثاني من هذا القرن تطرح هذا السؤال، وصارت عبارة «ستيف جوبز القادم» عبارةً شائعة مبتذَلةً تُلصَق بكلّ شخصية يبزغ نجمُها في مجال التكنولوجيا.

كان من أبرز المرشّحين لخلافة جوبز عامَ 2015 إليزابيث هولمز (Elizabeth Holmes)، مؤسِّسة شركة «ثيرانوس» (Theranos) ورئيستها التنفيذية، وهي شركة تسعى إلى إحداث ثورة في مجال تحاليل الدم. فقد أعلنت الشركة أنّها بفضل تكنولوجياتها الجديدة قادرة على إنتاج تحاليلَ طبيةٍ متنوعة في جرعة واحدة، بسرعةٍ كبيرة وثمنٍ بَخس، وبأخذ قطيرات قليلة من دم المرضى. ولقد بدا حينئذ أنّ شركة «ثيرانوس» تكاد بفضل عشرة أعوام من البحث والتطوير تلامس عَنان السماء، وقُدّرت قيمتها بتسعة مليارات دولار، وتوّجت إليزابيث هولمز التي تملك 50% من أسهم الشركة أصغرَ ملياردیرةٍ غير وريثة في العالم من قِبَل مجلّة فوربس[2]، وغَدَت أيضًا أصغر من ينال جائزة «هوراسيو الجزائر» (Horatio Alger)، التي تعتبَر مكافأةً «للإنجازات الرائعة

(1) Scott K. RADFORD et Peter H. BLOCH, « Grief, commiseration, and consumption following the death of a celebrity», *Journal of Consumer Culture*, VOL. 12, no 2, 2012; Emma BELL et Scott TAYLOR, «Vernacular mourning and corporate memorialization in framing the death of Steve Jobs», *Organization*, vol. 23, no 1, 2016.

(2) Matthew HERPER, « Bloody amazing », *Forbes*, 2 juillet 2014.

التي حُقّقت بفضل النزاهة والعمل الدؤوب والاستقلالية والمثابرة في ظلّ المنافسة». وقد ورد اسمها في قائمة مجلة «التايم» للشخصيات المائة الأكثر تأثيرًا في العالَم، وانتشرت في الصحافة صورٌ ومقالات تشيد بها.

وعلى مجلّة إنْك (Inc) التي احتفت بها في صفحة الغلاف نقرأ العبارة التالية: «إن لم ترَ ستيف جوبز في إليزابيث هولمز فإنّك تتعامى قصدًا وعمدًا»[1]. وعلى مثال جوبز الذي قام ضدّ هيمنة شركة IBM في الثمانينات، ظهرت هولمز بصورة «المخلِخلة»: فقد هاجمت قطاعًا راسخًا ذا هوامش مريحة، وعملت على «أَوْبَرتِه»[2] لصالح المستهلِك. وهي بروحِها المتمرّد تحلم أن تقضّ مضاجع عمالقة الصانعة الطبيّة. وهي تصرّح في مؤتمراتِها ومقابلاتها بأنّ الحُقَن هي وسائل من عصرٍ آخر: «إنّي لأرى أنّنا لو كنّا قد هبطنا على هذه الأرض قادمين إليها من كوكب آخرَ وشرعنا في التفكير في اختراع طرائق لتعذيب البشر، لكان واردًا أن تكون فكرة غرس إبَرٍ فيهم لامتصاص دمائهم فكرة ملائمة جدًا»[3]. إن إليزابيث هولمز تبدو مثل ستيف جوبز قادرةً على التخلّص من العادات القديمة، وإنهاء تقاليد السوق البالية، وتوليد نموذج جديد في الاقتصاد. لقد استحدثت -كما استحدث جوبز من قبلُ- «زِيًّا رسميًا»: رداءً أسودَ وسراويلَ سوداءَ وياقة سوداء كذلك؛ واتّبعت مثلَه نظامًا غذائيًّا نباتيًّا صارمًا جدًا؛ وهي تطلب من مهندسيها -كما كان يطلب- أن يخترقوا حدودَ قدراتِهم ليحقّقوا المستحيل. يقول ويليام جيه. بيري (William J. Perry) الذي عرف الشخصيتين كلتيهما معرفة جيدة: «لقد وُصفت أكثرَ من مرّة بأنّها ستيف جوبز القادم، لكنّي أراه تشبيهًا مع الفارق؛ فهي ذات وعي اجتماعي لم يملكه ستيف قطّ. هو كان عبقريًّا، أمّا هي فعبقرية ذات قلب كبير»[4].

(1) Kimberly WEISUL, « How playing the long game made Elizabeth Holmes a billionaire », *Inc.*, octobre 2015.

(2) «**الأَوْبَرة**»: معرَّبٌ من (uberization)، وتعني «إعادة هيكلة النموذج الاقتصادي لشركة أو قطاع نشاط ما، بفعل ظهور فاعلٍ جديد يقدّم الخدمات نفسَها بأثمان أقلّ، ويقوم على تنفيذها عمّال مستقلّونَ لا موظَّفون، عبر منصّات حجز على الإنترنت غالبا» (معجَم لاروس Larousse، لفظة: ubérisation) [المترجم].

(3) Rachel CRANE, «She's America's youngest female billionaire – and a dropout», *CNN*, 16 octobre 2014.

(4) Ken AULETTA, «Blood, simpler», *New Yorker*, 15 décembre 2014.

تسعى إليزابيث هولمز إلى إنقاذ الأرواح؛ ذلك أنّ شركة ثيرانوس بدمقرطتها لحقّ الحصول على تحاليل الدم ستمكّن المواطنين العاديّين من التحكّم في شؤون صحّتهم. فبفضل إجراءات مبسَّطةٍ غير مكلفة سيكون ممكنًا الكشفُ عن أمراض مثل السكريّ والسرطان وعلاجُها سريعًا. وقد نجحت إليزابيث هولمز في إمرار قانون بولاية أريزونا يضمن للمستهلكين حقَّ الحصول على اختبارات الدم مباشرةً دون وصفة طبية. وأعلنت خلال أحد المؤتمرات أنّ «الحقّ في حفظ الصحّة والهناء لكلّ إنسان، لأولئك الذين نحبّهم ونشفق عليهم، هو حقٌّ إنساني مبدئيّ (...). إنّنا نتخيّل عالَمًا يستطيع فيه كل إنسان أن يصل إلى المعلومات الصحيّة في الوقت المناسب، عالَمًا لا يقول فيه أحد: «آه لو أنّني علمتُ ذلك مِن قَبل!»، عالَمًا لا يودَّع فيه أحدٌ قبل أوانه»[1].

إليزابيث هولمز في مهمّة. حين أسست شركة ثيرانوس عامَ 2003 ولم يكن لها من العُمُر حينها إلا 19 عامًا، كانت قد غادرت مقاعد الجامعة وتركت دراستها في تخصص الهندسة الكيميائية في جامعة ستانفورد المرموقة؛ لأنّها كانت تعيش بذكرى عمّها الذي غيّبه سرطانٌ تأخّر الكشفُ عنه. لذا هي تعمل من الصباح إلى المساء، أيامَ الأسبوع جميعَها، مكرسة حياتَها كلَّها لشركتها. لا تأخذ إجازة من العمل، وليست لها حياة عاطفية أو اجتماعية بالمعنى الحقيقيّ. قضت طفولتَها منعزلةً تجمع الحشرات وتلتهم أمّات الأدب الكلاسيكي. وقد كان من بُكور نضجِها أنّها درست لغة «المندرين» في جامعة ستانفورد وهي بعدُ في الخامسة عشرة. تقول: «لقد كانت تلهمني منذ صِغَري فكرة أنّ الناس يستطيعون إبداع منتَجاتٍ تغيّر العالَم»[2].

وهكذا ظلّت شعبيّة إليزابيث هولمز تزداد بازدياد ما يُنشر عنها في الصحافة من صورِ المدح والتقدير، إلى أن نُشِر عامّ 2015 في صحيفة «ول ستريت» تقريرٌ يشكّك في فعّالية التحاليل التي تقدّمها شركة «ثيرانوس»[3]. وقد كان جوابُ إليزابيث هولمز

(1) Elizabeth HOLMES, «Healthcare is the leading cause of bankruptcy», TEDMED, 2014.

(2) Donna FENN, «Elizabeth Holmes wants you to have control of your health info», *Glamour*, 29 octobre 2015.

(3) John CARREYROU, «Hot startup Theranos has struggled with its blood-test technology», *Wall Street Journal*, 16 octobre 2015.

الدفاعيّ في وجه المشكّكين هو العبارة الشهيرة للشركات الناشئة: «هذا ما يجري حين تعمل على تغيير الأشياء: يظنّونك مجنونًا، ثمّ يحاربونك، ثمّ فجأةً تغيّر العالَم»[1]. نبّه التقرير المذكور السلطات الأمريكية فراحت تنظر في أمر الشركة، إلى أن انتهى بها المطاف إلى الانهيار: لقد زَوَّرت الشركة عشرات آلاف الاختبارات لتخفيَ عدم فعّالية عملِها، وأجبرت على إغلاق مخابرها عام 2016، في حين كان أحد كبار المساهمين فيها يتابعها قضائيا بتهمة الكذب والتكتّم. وفي عام 2018 طالبت لجنة الأوراق المالية والبورصات (SEC)، وهي الوكالة الأمريكية المكلَّفة بتنظيم الأسواق المالية، إليزابيث هولمز بالتنازل عن إدارة الشركة ودفع غرامة مقدارها 500 ألف دولار. وفي العام نفسِه فُتح تحقيقٌ قضائي بحقّ هولمز من طرف محكمة بكاليفورنيا بتهمة الاحتيال المنظّم، وحُلّت شركة «ثيرانوس».

لقد ظلّت الصحافة الأمريكية تشيد بمغامَرة المرأة العصامية عامين كاملَين، من 2013 إلى 2015؛ فقد أشاد الصحفيون في مجلّات مثل فورتشن (Fortune) وفوربس (Forbes) وحتّى نيويورك تايمز (New York Times) بميلاد سيّدة أعمال عبقرية، وراحوا يذيعون في الناس ما كانت تنشره هولمز عن نفسها. ولئن كان أسلوب القَصّ (storytelling) الذي اعتمدته إليزابيث هولمز شديد الفعالية؛ فذلك لأنّه ضمّ جمعًا من الإشارات المميّزة لما سندعوه في هذا الكتاب «أسطورة رائد الأعمال»: فكرةَ العبقرية، والرؤيةَ المتسمة بالنبوءة، والقوّة المخلِخلة، والاستباقَ المعلِن، والانشقاقَ المتصف بالأصالة، والإرادة الجامحة... اجتمعت هذه العناصر كلها فكوّنت قصّة فرضت نفسَها شيئًا فشيئًا في الثقافة الأمريكية والعالمية عن شخصية رائد الأعمال، الذي هو في هذا المخيالِ الفردُ في أبهى حُلَلِه: كائنٌ بنى نفسه بنفسه، هو منبع نجاح نفسِه وراوي روايتِه.

هذه التمثلات لرائد الأعمال منتشرة جدًّا في الخطاب الإعلامي، وهي تشِيع رؤية للعالَم أو أيديولوجيا بلغَ من قوّتها في فرض نفسِها أنّها لا تظهر بمظهر الأيديولوجيا من الأساس. تعمل أسطورة رائد الأعمال على إشاعة صور نمطية ومخطَّطات سببية، ونشرِ

(1) «Theranos CEO Elizabeth Holmes: firing back at doubters», CNBC, *Mad Money*, 16 octobre 2015.

مقولات ضمنية وافتراضات. إنّها تُشِيع طرائق للنظر إلى الواقع والتعبير عنه وتخيُّله. وتنتج ما يتملّق رأيَ المتلقّي ويقبله عقلُه. وتعطي أسطورة رائد الأعمال شكلًا مُنظمًا لتمثُّلات عن العلاقات الاجتماعية والاقتصادية غير قابلة للجدل. ومن خلال القصّة تنتقل هذه التمثلات -بأثير التكرار- إلى حيّز ما لا يخضع للتفكير أو المساءَلة. وبذلك تصير أسطورة رائد الأعمال أقرب ما يكون إلى «كُلٍّ خطابيّ مهيمِن»[1]، بمعنى أنّها تؤسس تصورًا خياليًا للطبيعة والخلود.

ثمّ إنّ الاحتفاء برائد الأعمال في صورة المبدِع البطَل الملهَم المحسِن يمكّن هذه الأسطورة من إشاعة نظام أخلاقي (axiologie). ومن خلال نشر جمعٍ من القضايا والأفكار التي يسهل تجنيدُها وتعبئتها، تُشِيع الأسطورة «مسلّمات» متعلقةً بطريقة عمل المجتمعات. وهدف هذا الكتاب هو فكُّ هذه المسلّمات، من خلال تحليل كلّ مكوّن من مكوّنات الأسطورة ومقابلته بما يعلّمنا إياه التراث العلميّ لعالَم الاجتماع والاقتصاد. وبذلك سنكشف الطابع المصطنَع والمخادع لهذه القصص، ونبيّن تبسيطاتِها ومعضلاتِها وتناقضاتِها.

سيخصَّص الفصلان الأولُ والثاني لوصف مكوّنات أسطورة رائد الأعمال من خلال الصورة الشخصية النموذجية لِستيف جوبز. ثمّ نتتبّع في الفصل الثالث نشأة هذه الأسطورة (الجينيالوجيا)، بالبحث في كيفيّة تطوّر صورة رائد الأعمال عبر التاريخ الأمريكي. أمّا في الفصل الرابع فسنبيّن من خلال ما نقترحُه من تاريخٍ مضادٍّ لوادي السيليكون كيف تُسهِم هذه الخطابات المترسّبة في جعل العمّال خفِيّين غيرَ مرئيين. ثمّ نحلّل في الأخير وظيفة الشرعنة التي تقوم بها أسطورة رائد الأعمال في النظام الرأسمالي الحالي، بتبيين المفاهيم التي يطبعُها هذا النظام في مخيالِنا عن العالم الاجتماعي.

(1) Marc ANGENOT, *1889. Un état du discours social*, Le Préambule, Longueuil, 1989, chapitre I.